شخصيات عباسية :

جحظة المغني الشاعر

٢٢٤ - ٣٢٤ هـ

للشيخ محمد رجب البيومي

كان للشعر والغناء في الدولة العباسية سوق رائجة ، فما ينظم شاعر قصيدة ، أو يبدع مغن صوتاً ، حتى تتطلع إليه الأنظار ويتصل ذكره بالرؤساء والأعيان فتخلع عليه الهبات الوافرة وتهدى إليه المنح الجزيلة ، وقد يطير ذكره إلى الخليفة ، فيقربه من ساحته ، ويسمر معه في أطيب أوقاته ، حتى يكون نديمه المحظوظ ، وصفيه المختار .

لذلك أكب الناشئون على الأدب ، يقيدون شوارده ، ويقتنصون فرائده ، فحفلت بهم المجالس ، وأورثوا الثقافة العربية ثروة خلّدت العصر العباسي في سجل التاريخ حتى لا يكاد يوجد نظيره في شتى عهود العربية وقد توالت عليها السنون وامتدت بها الأحقاب .

ولقد كان أبو الحسن أحمد بن جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي أحد هؤلاء الذين أوتوا نصيباً وافراً من المعرفة ، فقد سلخ من عمره وقتاً مديداً في البحث والدراسة حتى استطاع أن يكون عالماً متعدد الثقافة ، ومؤلفاً غزير المادة ، وشاعراً خفيف الظل ثم هو بعد ذلك مُغن بارع تحن إليه المسامع وتتعلق به القلوب .

انحدر أبو الحسن — وقد اشتهر بجحظة — من سلالة البرامكة فحرص جهده على أن يكون بعيداً عن المزالق السياسية كيلا تحوم حوله الشبهة فيؤخذ بجريرة آبائه وأجداده ، لا سيما وقد وجد في عصر أهدرت فيه دماء الساسة ، وتناثرت أشلاء القادة من وزراء ورؤساء ، بل لقد انتقل الخطر إلى أمراء المؤمنين فكان الخليفة يهوى في ليلة واحدة من القصر إلى القبر ، وحسبك أن تعلم أن جحظة قد شهد في مدى عمره عشرة خلفاء فارقوا تيجانهم ما بين قتيل وجريح

ولم يستطع أبو الحسن أن يستفيد من أدبه وغنائه كما استفاد غيره لأنه كان ذا نمط خاص في حياته فلم يسر في ركاب أمير ، ولم يجامل عظيما ، والرؤساء في كل زمان ومكان لا يجزلون حباءهم الوافر إلا لمن يحبر فيهم المدائح الطويلة ، لاهجاً بالثناء عليهم في غدوه ورواحه ، ولهذا كان الشاعر يشكو من دهره ، ويعجب من حرمانه ، أضف إلى ذلك ما وقر في نفسه من أنه سليل البرامكة ذوي الأموال المصادرة ، والتراث السليب ، وهو بعد ذلك فقير معدم تسأله عن حاله فيجيب .

لست الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
أنا الذي دينه إسعاف نائله ... والفقر يعرفه واليأس والعدم
أنا الذي حب أهل البيت أفقره ... فالعدل مستعبر والجور مبتسم

وكأن السياسة قد حرمت عليه أن يتمدح بآبائه وأهله فكان يعاني من ذلك هما ناصباً وشجنا مبرّحاً ، وقد ينفجر صبره فيسفر عن مراده في وضوح ، ويروح عن نفسه فيقول :

أنا ابن أناس موّل الناس جودهم ... فلم يخل من أحسانهم بطن دفتر

ولقد كان الغناء يدر عليه بعض الخير والنعمة ولكنه مسرف متلاف لا يبقي على شيء فهو في حاجة ماسة إلى العطاء المتواصل ، والغريب أنه ابتلي بمن يغنّيه فيكتب إليه رقاعاً عديدة دون أن يأذن بصرف واحدة منها وقد يكون جحظة في ضيق من عيشه فيملن إليه تبرمه إذ يقول :

إذا كانت صلاتكم رقاعاً ... تُخطّط بالأنامل والأكف
ولم تكن الرقاع تجر نفعاً ... فها خطي خذوه بألف ألف

وشر من ذلك أن يغني جماعة فيقولون له أحسنت ثم لا يعطونه قليلا أو كثيراً وهو ينتظر أن يحظى ببعض ما يتمتع به زملاؤه المغنون من منح وهبات فلا يسعه إلاّ أن يعبر عن هذه الحقيقة المريرة فيهتف .

لي صديق مغرى بقربي وشدوي ... وله عند ذاك وجه صفيق
قوله إن شدوت أحسنت زدني ... وبأحسنت لا يباع الدقيق

ولقد دفعه ضيق يده إلى التهافت على موائد الخلان والأصدقاء فكان لا يترك صاحباً إلا لجمه في مأكله ومشربه ، فإذا صادف منه بشراً وابتساماً سكت عنه ، وإذا لمح في وجهه عبوساً سلقه بهجائه المقذع ، وأخذ يشهر به في كل مكان ، راوياً عن بُخله ما يُمتع من النوادر المضحكة كأن يقول « سلمت على بعض الرؤساء وكان مُبخلا فلما أردت الانصراف قال لي يا أبا الحسن ماذا تقول في أكل القطائف ؟ فقلت ما آبى ذلك ، فأحضر لي

جاماً فيه قطائف فأوغلت فيها وصادفت منى سغبة ، وهو ينظر إلىّ شزراً فقال يا أبا الحسن إن القطائف إن كانت بجوز أخمتك ، أو كانت بلوز أبشمتك ، فتعجبت من شأنه ، وقلت فى أمره .

دعانى صديق لى لأكل القطائف ... فأمعنت فيها آمناً غير خائف
فقال وقد أوجمت بالأكل بطنه ... ويدك مهلا انهى إحدى التالف
فقلت له ما إن سمعنا بهـا لك ... ينادى عليه يا قتيل القطائف

لذلك تجد أكثر معارفه قد أقفلوا أبوابهم فى وجهه حذراً من لسانه كما نهوا على الحجاب أن يصرفوه بمجرد رؤيته ، وجحظة يعلم جيداً ما يبطنون له ، فيشنع عليهم فى تهكم يصل به إلى الوقاحة والتبجح فيقول :

ولى صاحب زرته للسـلام ... فقـابلنى بالحجاب الصراح
وقالوا تغيّب عن داره ... لخـوف غريم ملح وقاح
ولو كان عن داره غائباً ... لأدخلنى أهـله للنكاح

وكان إذا امتدت الوائد لا يرحم معدته بل يأخذ على نفسه عهداً أن يبتلع ما تقع عينه عليه ، وقد بلغ من بعض البخلاء أن ضربه فأوجعه لما صادف من نهمه الزائد ، فقد دخل على هرون ابن عريب فقدم إليه « مضيرة » فأوغل فيها إيغالا جعل ابن عريب يقول له : جعلتُ فداك أنت عليل ، وبدنك نحيـل ، والعصب ثقيل . فأجابه النهم فى تهكم ! والعظيم الجليل ، الفضل النبيل ، لا أترك منها الكثير ولا القليل . فغضب هرون وضربه عشرين مقرعة ، ولم يترك جحظة حادثته تمر بل سجلها فى شعره فقال:

ولى صاحب لا قدس الله روحه ... وكان من الخيرات غير قريب
أكلت طعاماً عنده فى مضيرة ... فيـا لك من يوم علىّ عصيب

ومهما يكن من شىء فى هـذه الأخبار ما يدل على كلفه بالطعام ولا ريب فقد كان فيه يستولى على جانب كبير من إنتاجه وتأليفه ، ولم يقتصر على ما نظم فيه من الشعر فى هذا الباب بل ألف كتباً خاصـة ذات فصول وعناوين ، والذى يقرأ هجاءه للبخلاء يعتقد أنه كان على شىء من الكرم فى بيته ، والحقيقة أن أبا الحسن ممن اشتهروا بالكزازة والشح فقد طار له فى هذا الباب صيت بعيد ، قال أبو على الأعرابى : كنت فى بيت جحظة فدخل علينا رجل من البادية ونحن نأكل فدعوناه وكان طاوى تسع ، فأتى على القصعة ونحن نرمقهما ونضحك ، فلما فرغ من مضغه قال له جحظة أتلعب معى النرد ؟ قال نعم فوضعاه بينهما وأبيا فانهزم جحظة هزيمة لم تمهد له ، فأخرج رأسه من الخيمة ورفع يده إلى السماء قائلاً : لعمرى إنى لأستحق هذا لأنى أشبع من أجاعه الله .

هذا وقد أوقعه شرهه فى مضحكات غريبة فقد كان يتحين الخلوة فى رمضان ليشبع جوفه ، وأحياناً يذهب إلى الرحاض وفى كمه كسرات من الخبز يلوكها فى غفلة من العيون ، قال الحسن البغدادى : كان جحظة عنـد أبى يوماً فى شهر رمضان فأجلسته فلما انتصف النهار سرق رغيفاً ودخل المستراح ، واتفق أن دخل أبى فرآه فاستعظم ذلك وقال ما هذا يا أبا الحسن ؟ فقال أقتّ لبنات وردان ما تأكل . وبنت وردان دويبة كالحنفساء توجد كثيراً بالمستراح .

وغير كثير على جحظة أن يفعل ذلك فقد كان من المستهترين بالدين إلى أبعد حد وأقصاه ، فهو يشرب الخمر ، ويأتى المحرمات ويتعرض للنساء مع أن الله قد منحه من الدمامة قسطاً لا يحتمل معه تماجن وخلاعة ، وقد سماه ابن المعتز بجحظة لنتوء قبيح فى عينه قد شوه سحنته حتى ضُرب بها المثل

وكان فوق ذلك قذر الثياب ، رث الأردان ، مع أنه كان يغشى المحافل العامة ويتصدر منتديات السمر ، وكذلك كان من معارفه البحترى وأبو الفرج ، ولست أفهم لذلك علة غير أن هؤلاء وأمثالهم ربما أرادوا أن يحاربوا ما شاع ببغداد من الترف الفاحش فى الزىّ والملبس ، فدفعتهم المغالاة إلى ما صاروا عليه من قذارة وحطة ، وإلا فلو كان جحظة قد اضطر إلى ذلك لفقره المدقع فلماذا أصر الوليد وأبو الفرج على ما كانا عليه من رثاثة وامتهان

(البقية فى العدد القادم) محمد رجب البيومي

إعلان

يعلن مجلس البدوشين القروى
تأجير التزام معدية البدوشين — حلوان
بالمزاد يوم ٦/٤ سنة ١٩٤٨ الساعة ١٠ ص
لمدة ثلاث سنوات اعتباراً من ٢٠ مايو
سنة ١٩٤٨ ومن يرسو عليه المزاد يدفع
تأميناً قدره ٥٠ ٪ من قيمة الإيجار
٩٠٦٦